العمل بالعلم

خطبة الاحتفال بمنح الشهادات القانونية لصف المنتهيات في المدرسة الاميركية للبنات في بيروت يوم الاثنين في ٨ تموز (يوليو) ١٩٠٧

١ — تحية وسلام

بالاحترام أجلو عليكم كلامي ... سائرًا عن تحيتي وسلامي
منتهلاً بالحمد لله ربّ الـ ... ـكون حيي الوجود باري الانام
ودعاه لنبيه الجلالة سلطا ... ن البرايا عبد الحميد السامي
كلّ قولٍ له مقامٌ ولكن ... ذا دعاه مقالُ كلّ مقام
وثناه محدّث عن شذاه الـ ... ـمسك طاوٍ حديثَ نشر الخزام
مستزادٍ على كرائم قومٍ ... ومعادٍ على مراقٍ كرام
رحّب المنتدى بهم واليهم ... مدّ كفّي حفاوةٍ واحترام
شرّفوهُ فازدان فيهم كجيدٍ ... لاح فيهِ عقدٌ بديعُ النظام
او سماءٍ يزينها كلّ شمسٍ ... ادركت فيهِ كلّ بدر تمام
او منارٍ في الشرق تقبس منهُ ... جالياتُ الشكوك والاوهام
شادهُ أهل البرّ معهد إرشا ... دٍ وهدى نجاه طبق المرام
مسبقًا للعلوم تحضيرَ فيهِ ... مذكيات الافكار والافهام
سهلاً للآداب عذبًا وانّ الـ ... ـسهل عذب دائمًا في زحام
وردتهُ الفتات من فتيات الـ ... ـشرق يصلين حرّ نار الأوام
راشفات ما حول النار بردًا ... صادرات عن وردهِ بسلام
راجعات من جنة العلم هذي ... مضمات الجيوب والاكمام
طالعات كواكبًا نيرات ... في سمائي مصرٍ وارضِ الشام
قاشعات غياهب الجهل ان الـ ... ـجهلَ باقٍ يدجو كثيف الظلام
فإذًا نحن في احتياجٍ الى شي ... ءٍ كثيرٍ من هذه الاجرام
ورجائي انا نشاهدُ ما يَطـ ... ـلعُ منهنّ زائدًا كل عام
هذه حاجة لنا ان بدأنا ان ... سعيَ فيها فزنا بختم الختام

٢ — شكر واعتذار

شرفتني دعوة من لدن هذه المدرسة الزاهرة لأن اخطب على صف الشهيات في هذا الاجتماع المعقود احتفالاً بمنحهن شهادتها القانونية فشكرت لها من صميم فؤادي إكرامها خصتني به على غير أهليةٍ وبلا استحقاق. لاني كما يعلم كثيرون من معارفي هجرت على رغمي الكتابة والخطابة منذ سنوات، وكدت اطلقهما الطلاق البات. فلم يبق لها في ذهني بعد هذا الهجر الطويل سوى رسم دارس مخيل. كأنهُ

"خولةَ اطلالٌ ببرقة شهمدِ تلوح كباقي الوشم في ظاهر اليدِ"

ولا اكتمكم اني لما بلغتني الدعوة حرتُ بين قبولها والتخلص منها. وتنازعني الاقدام على اجابتها والاحجام عنها. وكدت اختار الثاني على الاول معتذراً عن عدم الطاعة والامتثال، بقصور التهنهُ التأوة[1] وعجز جوّهُ الاهمال ولكنَّ رفض دعوة لطيفة كهذه يكلفني ما عنهُ لنقصر همتي ويطلب مني شيئةً غير شيتي هذا فضلاً عن ان طمعي بنيل الاكرام والحصول على شرف الوقوف في هذا المقام سهّل عليَّ اجابة الطلب. واذكرني غير ناسٍ ان الامتثال من خير الادب

٣ — موضوع الخطبة

وسأقتصر في خطبتي هذه على ما ألفت سماعهُ الآذان ودار على الالسنة من احاديث القوم في مجالسهم ومجتمعاتهم عن تعليم المرأة الشرقية. وأوجه كلامي على الخصوص الى التلميذات المنتخبات اللواتي اكملن دروسهن القانونية في هذه المدرسة وعزمن على الخروج الى مدرسة العالم الكبرى. فانقل اليهنَّ خلاصة ما يتحدّث بهِ الرجال والنساء في هذه الايام عن تعليم البنات. راجياً ان وقوفهنَّ على آراء الناس فيهنَّ وما يقولونهُ منهنَّ يكون — مع ما تعلمنهُ في هذه المدرسة — اكبر معين لهنَّ على تذليل الصعاب التي تعترضهنَّ في اسفار الحياة اسفارٍ كان وجودهنَّ في المدرسة عبارة عن تأهّبٍ لها واستعداد واعدكم جميعاً أني اتحرّى في الرواية والنقل تدقيقاً يضمن مجيئهما صحيحين طبق الاصل. باذلاً فيهِ ما يبلغهُ جهدي القاصر. وانا براءٌ من تبعتهِ لانَّ قائل الكثر ليس بكافر

(١) ترك المذاكرة وهجر المدارسة بقال كان فلان من العلماء فاعترت بهِ التأوة

٤ — نهضة تعليم البنات

لا يخفى ان تعليم البنات في الشرق نهضة حديثة العهد نشأت في الربع الاخير من القرن الماضي . وحينئذٍ كان كلام ادبائنا في الحث عليها والدعوة اليها نظرياً محضاً لم يبنوهُ على اختبار محليٍّ بل على ما قرأوهُ في كتب الافرنج ومجلاتهم ومخفهم عن فوائد تعليم المرأة الغربية ورأوهُ من نتيجتهِ في سيرة بعض نساء الغربيين الذين استوطنوا بلادنا من قناصل ومرسلين وتجّار وغيرهم او على بعض مقالات كتبتها المتعلمات او جمل فرنسوية وانكليزية نطقت بها التلميذات . هذا كان كلّ ما استندوا اليهِ في ذلك العهد ولم يتعدّ هذا الحدّ

اما الآن فقد مضى على هذه النهضة مدة ربع قرن او تزيد وخرج من مدارسنا الوف من فتياتنا القراتي تقرّقن في مشارق الارض ومغاربها وصرن زوجات ربّات بيوت وامهات مربيات اولاد واصبح الحديث عن تعليم فتاتنا مبنيًّا في الغالب على ما ظهر من نتيجتهِ في امها او خالتها او عمتها او جارتها . فهو اذًا مسوقٌ عن تجربةٍ واختبار ومستدٌ الى ما ثبت برؤية العين وسماع الأذن وليس بعد هذا التدقيق في النقل حاجةٌ لمستزيد

٥ — علم وعمل

وقد رأيت بعد البحث الطويل والاختبار الدقيق والقاء السمع المتواصل الى هذا الحديث ان معاشر المتحدثين — رجالاً ونساء — متفقون كلهم او معظمهم على وجوب تعليم الفتاة ولا ينكرون فائدة العلم لها . ولكنهم يطلبون في حديثهم بصوتٍ واحد انها بعد ما تستوفي نصيبها من مدلول ع - ل - م . حسب ترتيبها الوضعي تأخذ ايضاً نصيباً كاملاً من مدلول هذه الاحرف عينها بعد تقديم الميم على اللام . اذًا مطلوبهم من تعليم البنات لا يتعدى مدلول هذه الاحرف الثلثة طردًا وابدالاً اي علمٌ وعمل

٦ — حول الموضوع

هذا ما يطلبهُ الذين تناول ألسنتهم هذا الموضوع في مجالسهم الخصوصية ومجتمعاتهم العمومية واكثرهم ان لم اقل كلهم كانوا تلاميذ وتلميذات وتعلموا في المدارس كما يتعلم الآن فتياتنا وفتياتنا وقد عرفوا بالاختبار ما كان للعلم المقرون بالعمل من النتائج الحسنة السارّة وما كان للعلم بلا عمل من العواقب الوخيمة المحزنة . فمن معرفتهم واختبارهم اقتبس هاتين الكلمتين — العمل بالعلم — واجعلهما موضوعًا لكلامي . وقبل الدخول في الموضوع اسمحوا لي ان اطوف حولهُ قليلاً وابحث في جدواهُ عن امرين مهمّين اولهما العمل بلا علم والثاني العلم بلا عمل . وقبل هذا وذاك اقول اني اريد بالعمل كل ما تقوم بهِ الفتاة في بيت ابيها والمرأة في

منزلها من الاعمال والاشغال على وجه التعميم والشمول بلا حصر ولا تخصيص . واريد بالعلم كل معرفة صحيحة مفيدة تحصلها الفتاة من دروسها الثانوية في المدرسة او تستعين بتلك الدروس على تحصيلها في المستقبل

٧ — العمل بلا علم

هذا النوع من العمل كثير الشيوع بيننا حتى اننا كيفما التفتنا وابينا ذهبنا نرى آثاره حيَّة لدينا ناطقة وشواهده متراكمة الينا متسابقة . ففي البيوت والمنازل بل في المجتمعات والمتنزهات نرى فتيات اوانس ونساء عقائل من حلية المجالس وزينة المنازل لسن في شيء من التواني والكسل ولهن في العمل همة لا تعرف الملل وعندهن من العزم والنشاط ما يضرب به المثل . ولكنك لسوء الحظ لا تجد في عمل واحدة منهن إحكاماً تطيب له النفس وتقر به العين ولا إتقاناً يدلك على ان صاحبته صناع اليدين لا ترى في الملابس والزينة والحديث ما تشتاق اليه من سلامة الذوق وحسن التناول وصحة الادب . لا ترى في تدبير المنزل وتربية الاولاد ما تقتضيه مبادئ الترتيب وقواعد الاقتصاد وشروط النظافة وقوانين الصحة . ولماذا ؟ لان هذه الاعمال كلها تعمل بلا علم . بلا معرفة . نعم انها تعمل برغبة ونشاط ولكنها تعمل ايضاً بجهل والجهل مفسدة الاعمال ومطية التشويش والاختلال وعلة الخوازات والحسرات في قلوب كثيرين من الرجال . تراهم يسخطون اكفهم لكل ما تطلبه نساؤهم او بناتهم او شقيقاتهم من المال للانفاق على المآكل والملابس والامتعة وغيرها ولا يردُّون لهن سؤالاً من هذا القبيل . ولكن جهل التدبير والاقتصاد وفقدان الاحكام والاتقان وعدم معرفة وضع الشيء في محله — هذه كلها واشباهها — تذهب المال سدى وتحرم الذين عانوا عرق القربة في جمعه التمتع بلذة انفاقه

وهنا نسأل الى متى يبقى كثير من نسائنا وبناتنا يعملن بلا علم ؟ والجواب اولاً حتى يستنير جميع الآباء والامهات بنور العلم الصحيح ويروا ان الانفاق على تثقيف عقول بناتهم ضروري كالانفاق على تغذية اجسادهن ثانياً حتى نرى الشبان يؤثرون في اختيار الزوجة تهذيب العقل على جمال الوجه واسلاء الجيب . اذاً متى صارت بيوتنا كلها مدارس ابتدائية معلموها الآباء والامهات وفضل شبابنا البنات المتعلمات المتهذبات على الفتيات الجميلات الجاهلات نشأ ما نتمناه من استنارة عقول نسائنا وبناتنا بضياء العلم والمعرفة والفهم واختفت من بيوتنا آثار العمل بلا علم

٨ — العلم بلا عمل

ترى فتاةً او امرأةً تعمل بلا علم ولا معرفة وتشاهد الاختلال عائقاً بعملها ولاعباً والتشويش آكلاً عليهِ وشارباً فتأسف على ذهاب تعبها سدى وتباع المال المدفوع ثمن ما تعملهُ باطلاً . عند هذا الحد يقف بك أتأثر — تحزن وتأسف . لكنك لا تلتاظ ولا تلوم بل ربما عذرت العاملة لانها عملت برغبة وارادة وهي غير مسؤولة صريحاً عن جهلها الذي انسد عليها عملها او اتلفهُ ولكن ما قولك في فتاة ارسلت الى المدرسة منذ نعومة اظفارها فتعلمت وتهذبت وتدربت على عمل كل ما يطلب منها في مستقبل حياتها ولما خرجت من المدرسة اتدسر عملها على التطلع والتضلع بالعلم والترفع عن كل عمل مفيد على الاطلاق . ان تأثرك من فتيات كهذه — وكثيرات ما هن — لا يقف بك عند حد الحزن والاسف بل يتعداهُ الى غيظ شديد وحنق ما عليهِ مزيد ويوسع لك مجال اللوم والتنديد

وقد يقول قائل ان فتاة كهذه ليست بعالمة بل هي من مخلات العلم ومدعياتهِ فاقول هذا لا ليست بمدعية بل هي عالمة تماماً ولها ما لغيرها من المتعلمات من المعرفة الصحيحة المفيدة ولكنها لم تطلب العلم للاستنارة بهِ والانتفاع من العمل بموجبهِ بل للتباهي باحرازهِ والافتخار بمعرفتهِ . واني لا افهم قول الرسول " العلم ينفخ " الا بهذا المعنى اي انهُ يريد العلم العقيم غير المثمر — العلم الفارغ — العلم بلا عمل

ولو سئلت ايهُ المرأتين ايسر على الرجل خطباً واهون شراً العاملة بلا علم ام العالمة بلا عمل لاجبت على الفور ان خطبهُ في الاولى ايسر ومصابهُ اصغر اذ لها في عجزها او قصورها او خطاها شفيع هو حسن قصدها وسلامة نيتها لانها تريد اتقان عملها ولا تستطيعهُ . ثم ان جهلها الذي يحول دون هذا الاتقان يقف ايضاً بمطاليبها عند حد الحاجة فقل لتعداهُ الى شيء من مقتضيات التأنق في الكماليات وبناء عليهِ تكون مقترحاتها محدودة وخسارة ما تتلفهُ او تفسدهُ محدودة . اما التي تعلم ولا تريد ان تعمل بموجب علمها فصاب الرجل فيها اعظم واكبر وضررهُ اشدهُ واوفر وخسارتهُ افدح واكثر لانهُ في كل ما تدعو اليهِ الضرورة من الحاجيات ويقضي بهِ حب التأنق من الكماليات يضطر ان ينفق انفاقاً معيناً على ثمن الشيء واتفاقاً غير محدود على اجرة عملهِ . هذا فضلاً عن ان علم امرأةٍ كهذه يمكنها من توسيع دائرة كمالياتها والتفنن في مطاليبها وستلزماتها تشب عن طوق العد ولا تقف عند حد . وكم للرجال في هذا الشأن من شكوى امرٍّ من الصبر وبلوى لحرٍّ من الجمر وكلها عادلة صادقة اذا سكتوا هم عنها كانت الجبال بها ناطقة

٩ — العمل بالعلم

فليكنّ ايها المنتهيات أوجد الآن كلامي واقول سمعتنّ خلاصة ما يتحدث به الناس عمّن تعمل ولا علم لها ومن تعلم ولا تعمل والشهادات القانونية التي أقيم هذا الاحتفال لتوزيعها عليكنّ تشهد بعلمكنّ وتخرجكنّ من عداد الجاهلات فلا نخاف ان تكنّ في المستقبل من جملة العاملات بلا علم ولكن يبقى لنا وجه آخر نخوف أهمّ اعتبارًا وأخطر شأنًا من الوجه الاول نخاف عليكنّ ان تكنّ (لا سمح الله) من العالمات بلا عمل . وربما كان خوفنا هذا في غير محله — ونرجو ان يكون كذلك — لما نعهده من حرص هذه المدرسة على وقايتكن من التعرض لهذا الخطر وما نعلمهُ ايضًا من حسن سيرتكنّ واستعداد كنّ للعمل بما تعلمتنّهُ . ولكن الوسط الذي تخرجن عنهُ قليل اليه لا يخلو لسوء الحظ من عالمات غير عاملات وتكنّ فيه عرضةً لعدوى هذا الداء — داء العلم بلا عمل — من حيث تدرين ولا تدرين . فلا بأس من بعض نصائح تزيدكنّ حصانةً ومناعةً وتعينكنّ على استيفاء شروط الصيانة والتوقي

ومن يقف امامكنّ هذا الموقف ويتوخى في نصحكن الصدق والاخلاص تتشعبُ وجوه النصح لديهِ ويتثاقل القول عليهِ فلا يعرف بأيّهُ يبدأ ولا سيما اذا كان الوقت ضيقًا والمجال ليس بذي سعة . فيلجأ الى الاختصار جريًا على مقتضى الحال ويعدل عما كان يريدهُ من التفصيل الى ما توجبهُ الضرورة من الاجمال

هكذا افعل الآن واقول ان نصحي الوحيدة لكن ايها المنتهيات هي العمل بالعلم . هذا ما يطلبهُ الناس رجالاً ونساء . على هذا تدور احاديثهم وبهِ تتطلق السنتهم وتنطق شفاههم . لا يطلبونهُ بالحرف ولا يقصدونهُ بالذات ولكن جميع مطالبهم وكل حاجاتهم مجموعة في العمل بالعلم . يقولون نريد ان نرى في بنات المدارس اهليةً حقيقيةً وكفاءةً صحيحةً لان يكنّ فيما بعد ربّات بيوت مدبرات منازلهنّ مربيات اولادهنّ معينات لازواجهن اي يريدون عاملات بالعلم

يقولون لسنا في حاجة الى نفوسهنّ في العلم والمعرفة ولا الى سبقهنّ في الحكمة والفلسفة او البراعة في اقتباس الازياء والاصطلاحات والعادات او التفرد في التضلع من آداب المحادثات في المجالس والمجتمعات . بل من شاءت منهن تجليةً او سبقًا فليكن في احراز كل فضيلة وعمل ما فيهِ شرف اهلها وعمار بيتها وراحة زوجها وسعادة اولادها اي يريدون عاملات بالعلم

يقولون لسنا في حاجة الى من خطرات النسيم تتهرج خديها ولمس الحرير يُدمي بنانها بل

الى من في كنفها من قراع الابر والمقصات وجميع امتعة البيت وآنيته ماني صيوف الابطال من قراع الدارعين في ساحة النزال اي يريدون بنتاً عاملة نعلها

يقولون لا نحتاج في هذه الايام التي ضرب فيها انغلاء اطنابهُ ورفع الضنك قبابهُ الى من تشدهُ حول عنق رجلها خناق الضيق والعسر وتسدُّ عليهِ بامرانها وتبذيرها طريق الفرج واليسر بل الى من تقنع منهُ باليسير اذ عزَّ الكثير وتعيتهُ بالاقتصاد والتدبير على تحويل المعاسير الى مياسير . اي يريدون بنتاً عاملة بعلها

هذا قليلٌ من كثير مما يطلبونهُ وكلهُ على اختلاف انواعهِ وتعدد وجوههِ من الممكنات الواقعات فلا يطلبون شيئاً مستحيلاً رأوهُ في الحلم او صوَّرهُ لهم الوهم بل مما يشاهدونهُ في كثير من البيوت التي تولاها ربَّاتٌ حكيماتٌ مدبرات قائمات بهذه الاعمال قياماً يجتني الناعمون بظلالهِ — وانا والحمد لله واحدٌ منهم — ان يتسع نطاق استعمالهِ ويعمَّ تحدي مثالهِ والجري على منوالهِ

أفتردن ايها المتنبيات ان تكنَّ في عداد اولئك الفضليات وتطلعنَّ في سماء البيوت والمنازل شموس فضائل وفواضل ؟ عليكن بالعمل بالعلم . إعملن بما تعلمتنَّهُ في هذه المدرسة . لا نطالبكنَّ باكثر منهُ لانهُ يكفي وقد يزيد . أتذكرن القول " فمن يعرف ان يعمل حسناً ولا يعمل فذلك خطيئةٌ لهُ " واحذرن هذه الخطيئة كل الحذر . راجعن جميع الوصايا التي أمرتنَّ بحفظها واعملنَّ بها وعلمنَّ وكنَّ عظيمات في ملكوت السموات . تجنَّدنَ لنصرة الحق والذود عن حرمة الطهر والعفاف . واظهرن شجاعة الابطال وبسالة الصناديد في اعلاء شأن الآداب والفضائل وتطهير الارض من ادران المعاصي والرذائل

للناس عموماً والنساء خصوصاً ولعٌ بالحلى والجواهر . والالماس من اكرم الحلى واغلاها واجمل الجواهر وابهاها . ولهُ صفات خاصة بهِ منها شدة الصلابة وكثرة التألق واللمعان فلتكنَّ كل واحدةٍ منكنَّ الماسة في شدة صلابتها وعدم تأثرها من توالي وقع التجارب ومقارعة الخطوب والمصائب . ومقابلة المتاعب والمصاعب . وسرُّ تألق الماس انهُ لا يمتص كالفحم اشعة النور التي تقع عليهِ بل يعكسها كلها لعين الناظر فلتكن كل منكنَّ الماسة تعكس لعيون الناس ما وقع عليها في هذه المدرسة من اشعة نور العلم الصحيح وضياء الادب الحق إجعلنَّ سناء الصدق والامانة والقناعة والصبر والتواضع والوداعة ساطعاً باجمل الانوار وآخذاً بالبصائر والابصار

ثم ان الماس — كما لا يخفى عليكنَّ — لا يتألق من نفسهِ في الخفاء ولا يسطع

في الظلام ولا تلمع الاَّ بالظهور في النور . فاذكرنَّ هذا ولا تنسينهُ وكنَّ اردتنَّ ان يسطع الناس فسالكنَّ بنور باهر منقطع النظير اعرضتهُ قبل كل شيء على شمس البر وكوكب الصبح المنير

فرجائي ورجاء جميع الحاضرين هنا انَّ كلاً منكنَّ تفارق هذه المدرسة وهي بهديها مهتدية ومن نورها مقتبسة . مصدّقة ما تعلمتهُ بأطهر اخلال وافضل الاعمال وتحققة بذلك آمال السادة وامانيَّ الرجال . حتى يراها الاقارب والاباعد ويشدوا فيها بصوتٍ واحد : —

يا حبذا البنت إذ كانت بمدرستي كالزَّهر في الروض او كالزُّهر في الفلكِ
والآن عنها يقول الناظرون الى آدابها انها ليست سوى ملكِ
شبَّت على طاعة التهذيب عانيةً لما يسوِّدها في حضرة الملكِ
عفافها ساطع كالطيب منتشرٌ وطهرها طالعٌ كالبدر في الحلكِ

بيروت اسعد داغر

مهد الجنس السامي (١)

ايها السادة والسيدات الكرام . لا اعتذر في موقفي هذا عن اني اتخذت هذا الموضوع دون غيره من بقية المواضيع وهي كثيرة لانهُ موضوع سافني اليهِ والى البحث فيهِ حرفتي الخصوصية فان من درّس النحو العربي في المدرسة الكليَّة نحوًا من خمس عشرة سنة متواليات واضطر الى قراءة آداب هذه اللغة سنين عديدة قياماً بفروض حرفتهِ وايفاء وظيفتهِ حتما لا بدَّ لهُ اذا خيِّر من ان يختار الكلام في موضوع شبيهٍ بموضوعي او في ما يقاربهُ . بل اعتدَّاني وُفّقت في انتقاء الموضوع لا احسانًا مني بل حسنةً كانت من السادة والسيدات الذين يسمعون اراد الله ان يكافئهم عليها من حيث لا يشعرون لعلموا ان جزاء الحسنة لا يضيع عندهُ تعالى . والاَّ فما كان ينبغي وقد تُرك لي ان انتقي الموضوع لنفسي من اني كنت اخذت علم النحو وفائدتهُ وتاريخهُ وتاريخ الذين اشتغلوا بهِ حتى وصل الى ما وصل اليهِ في حالتهِ الحاضرة او علم البيان وصافهُ وتاريخ الذين ألّفوا فيهِ كذلك . ولو فعلت ذلك فكيف كانت حالتكم ايها الكرام في اثناء هذه المدة التي لا خيار لكم فيها الاَّ ان تسمعوا وتصغوا

(١) خطبة قيلت في بيروت يوم ٢٨ حزيران (يونيو) ١٩٠٧ في حفلة مدرسة البنات الاميركانية السنوية لاعطاء شهاداتها لتلامذتها المتخرجين